

الفصل الثاني عشر

الأدب اليوناني والروماني

كان لليونان أدب غزير المادة متنوع الموضوع؛ فقصص خرافية عن آلهتهم الأقدمين، وشعر وصفي قصصي يصف حروبهم وأبطالهم، يُسمى شعر الملاحم Epic كالإلياذة والأوديسة.

وشعر غنائي Lyric يصفون فيه مشاعرهم، ويتعرضون فيه للمدح والفخر والحماسة والغزل والرثاء؛ ونحو ذلك مما تعرض له الشعر العربي. وشعر تمثيلي Dramatic يتخيلون فيه وقعة حربية أو نحوها كما يتخيلون رجالها، ثم يعمدون إلى تصوير الحوادث، ويضعون على لسان رجالها ما يتناسب مع شخصياتهم.

ولهم في هذه الأنواع كلها الشيء الكثير، الذي أثر في الأدب العربي قديمه وحديثه، ونبغ منهم شعراء عدة في بلادهم وفي مستعمراتهم، وبقي من شعرهم إلى يومنا هذا ما يكفي لتصوير ذلك تصويرًا بديعًا.

ولهم غير الشعر كتابة راقية وخطابة، وأبحاث وافية منظمة في الكتابة والخطابة وعلم البيان، كالذي ترى في أبحاث أرسطو؛ ولهم مؤرخون أمثال هيرودوتس وتوسيديد، كتبوا التاريخ ونظموه بالقدر الذي يسمح به عصرهم.

ولما ذهب سلطانهم وأصبحوا إقليمًا رومانيًا ضعفت آدابهم، ولكن ظل أهم ما وصلوا إليه محفوظًا يتغذى به الرومانيون — على نحو ما كان بين الفرس والعرب — وظهر في هذا العصر أدباء ومؤرخون أمثال بلوتارك، ولوسيد.

ولكن هل تأثر العرب والمسلمون بهذه الآداب في هذا العصر — أعني العصر الأموي — كما تأثروا بالفلسفة اليونانية؟

يظهر لنا أن التأثير الأدبي كان ضعيفاً، فإننا نرى الشعر العربي في العصر الأموي ظل حافظاً لكيانه، يترسم الطريق الذي خطه له الشعر الجاهلي في بحوره وفي قافيته، حتى في موضوعاته؛ كانوا مقصرين في الجاهلية في شعر الملاحم وفي الشعر التمثيلي، فظلوا كذلك حتى في العصر العباسي.

ومن العسير العثور على معان يونانية وردت في شعرهم، ونفتش في هذا العصر عن شاعر أصله يوناني أو روماني تعلم العربية وشعر بها، فلا نجد، مع أننا وجدنا كثيراً — فيما سبق — من أصل فارسي أصبحوا شعراء في العربية؛ ونجد مؤرخي المسلمين في ذلك العهد تأثروا في طريقة تدوين الحوادث بالنمط الفارسي لا بالنمط اليوناني، ويتجلى ضعف التأثير اليوناني في العرب بضعف معلومات المسلمين عن الحياة الأدبية اليونانية حتى في العصر العباسي؛ فتاريخ اليونان عندهم يبتدئ بالإسكندر الأكبر أو قبله بقليل — امتلائه بالأساطير الخرافية — ولم يسمعو كثيراً بتوسيديد؛ وقد سمعوا قليلاً عن هوميروس، واستشهدوا منه بشيء قليل مقتضب مضطرب كالذي نراه في الشهرستاني، والكشكول لبهاء الدين العاملي.

وعلى الجملة يظهر لنا أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية.

وعلة ذلك — على ما يبدو لنا — أن العرب وهم العنصر الحاكم كانوا متعصبين جد التعصب لشعرهم، لا يسمحون فيه بابتكار أو تحوير في الأساس؛ فنظّم البيت، وبحر الشعر، وقافية القصيدة ونحو ذلك، أشياء مقدسة لا يصح أن تُمس بسوء؛ بل الموضوعات التي يُقال فيها الشعر كذلك، فتحرير القافية من قيودها الثقيلة، وزيادة بحر على البحور التي قال فيها الجاهليون، مهما كانت موسيقى البحور الجديدة مطربة، والقول في موضوعات جديدة لم تُؤلف؛ كل هذه كانت في نظرهم انتهاكاً لحرمة الأدب، بل هم كانوا حريصين في تقاليدهم على ما دون ذلك، ولعل خير ما يُمثل هذا ما جاء في طبقات الشعر لابن قتيبة: «وليس لتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي على مَشِيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العَذَاب الجوّاري؛ لأن المتقدمين وردوا على الأوَاجِن الطّوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد؛ لأن المتقدمين

جروا على قطع منابت الشيخ والحَنُوة^١ والعرار، قال خَلْف الأحمر: قال لي شيخ من أهل الكوفة: أما عجبت من الشاعر قال: أُنبتَ قَيْصُومًا وَجَجْجَاتًا، فاحتُمَل له، وقلت أنا: أُنبتَ إِجَاصًا وَتَفَاحًا، فلم يَحْتَمَل لي؟!

وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا، قال الخليل بن أحمد: أنشدني رجل: تَرَفَعَ العِرْزُ بِنَا فَارَفَنَعَا، فَقُلْتُ: ليس هذا شيئًا، فقال: كيف جاز للعجاج أن يقول: تَقَاعَسَ العِرْزُ بِنَا فَاقْعُنَسَسَا، ولا يجوز لي!^٢

فترى من هذا إلى أي حد وصل العرب في المحافظة على تقاليد من قبلهم، حتى يلجئهم ذلك إلى أن يصفوا ناقةً وبعيرًا، وهم إنما يركبون بغلاً وحمارًا؛ ويدعوا أن الأرض أنبتت قيصومًا وجججًا، وهي إنما أنبتت إجاصًا وتفاحًا؛ ولا يبيحوا؛ لأنفسهم أن يشتقوا كلمة قياسًا على اشتقاق مثلها، فهؤلاء لا يكون لهم من الحرية ما يسمح لهم بأن يدخلوا ملاحم لم يكن يعرفها أبائهم، أو شعرا تمثيليًا ينبو عنه ذوقهم، والفرس إنما أثروا بشيء من معانيهم وخيالاتهم؛ لأنهم هم الذين انتقلوا للعربية ولم تنتقل العربية إليهم، وإن كان اليونان والرومان لم ينتقلوا إلى العربية كما أسلفنا لم يكن أثرهم فيهم كبيرًا.

وسبب آخر دعا إلى تأثرهم بالفارسية أكثر من اليونانية؛ ذلك أن دولة الفرس ذابت في المملكة العربية، وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير، فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئًا من أدبهم؛ أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب، ولم تكن تحت أعينهم لينظروها: آلهة تُخالف كل المخالفة تعاليم دينهم، ونظم سياسية واجتماعية لا عهد لهم بها، وأنواع من اللهو لم يألفوها، والأدب كما علمت إنما هو صورة منعكسة للمعيشة الاجتماعية، فكان لزامًا ألا يتذوق العرب الأدب اليوناني ويتأثروا به.

ولا يفوتنا — مع هذا — أن نُشير إلى أشياء ثلاثة يونانية كان لها أثر في الأدب العربي:

(الأول): كلمات أخذها العرب من اليونانية كالقسطاس (الميزان) والسَّجَنَجَل (المرآة) والبطاقة (الرقعة) والقسطل (الغبار) والقنطار والبطريق والترياق والنقرس والقولنج

^١ الحنوة: نوع من النبات له نور أحمر طيب الرائحة.

^٢ ابن قتيبة ص ١٦ طبع أوروبا.

(مرضان)، ورووا «أن علياً رضي الله عنه سأل شريحاً مسألة فأجابته، فقال له: قالون: أصبت بالرومية»^٢ إلى غير ذلك من الألفاظ.

(الثاني): ما كان من أثر في الشعر لشعراء النصرانية في الإسلام، أمثال الأخطل والقطامي، وحتى هؤلاء أثر النصرانية في شعرهم قليل، حتى يقول: «الأب لامانس» نفسه: «إن أثر النصرانية في ديوان الأخطل أثر ضعيف، ونصرانيته نصرانية سطحية، ككل العقائد الدينية بين البدو».

(الثالث): وهو أكثرها تأثيراً الحِكم اليونانية، وهذا النوع عُني به السريانين من قبل العرب، فنقلوا منه عن اليونانية الشيء الكثير، ثم أخذه العرب لما كان يتفق وذوقهم الأدبي، فنقل إلى العرب حكم نُسبت لسقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم، بعضها تصح نسبتها إليهم، وبعضها ليست من أقوالهم عزيز إليهم؛ كالذي روى عن أفلاطون أنه قال: «إذا أقبلت الدولة خدمت الشهواتُ العقول، وإذا أدبرت خدمت العقولُ الشهواتِ»، وقال: «من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد، كما يخدمك في سائر الأشياء، وإنما تخدمه بنفسك، ولا يستطيع أحد أن يسلبه إياك كما يسلبك غيره من المقتنيات»، وقال: «لا يضبط الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة»... إلخ، وقال أرسطو: «اعلم أنه ليس شيء أصلح للناس من أولي الأمر إذا صلحوا، ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم إذا فسدوا؛ فالوالي من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا بها»، وقال: «لن يسود من يتبع العيوب الباطنة من إخوانه»، وقال سقراط: «النفس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب؛ والنفس الشريرة لا ينجح فيها كثير من الأدب، لسوء معرستها»، وقال: «العقول مواهب والعلوم مكاسب».

وروا أن أوميروس جاءه رجل فقال له: اهجنني لأفتخر بهجائك؛ إذ لم أكن أهلاً لمديحك، فقال له: لست فاعلاً، قال: فإني أمضي إلى رؤساء اليونان فأشعرهم بنكوك، قال أوميروس مرتجلاً: بلغنا أن كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص فامتنع عليه أنفة منه، فقال له الكلب: إنني أمضي فأشعر السباع بضعفك! قال له الأسد: لأن تُعيرني السباع بالنكول عن مبارزتك أحب إليّ من أن ألوث شاربي بدمك... إلخ، إلخ.

^٢ الثعالبي في فقه اللغة.

وزاد هذا النقل من حكم اليونان على توالي الأيام حتى أُفردت لها الكتب كما فعل «ابن هُنْدُو» في كتابه، ورأيت رسالة طبعت في الجوائب جُمعت فيها حكم نسبت لأفلاطون لم يُذكر مؤلفها، وذكر أنها نقلت من نسخة مخطوطة سنة ٨٩٣هـ، وكتب الأدب مشحونة بضروب من هذه الأمثال.

الخلاصة

عقلية عربية لها طبيعة خاصة هي نتاج بيئتها، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم، ودين إسلامي أتى بتعاليم جديدة ورسم للحياة مثلاً أعلى يُخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية، وفتح إسلامي مدَّ سُلطانه على فارس وما حولها، وعلى مستعمرات رومانية كثيرة، فأذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم، وما كان للمستعمرات الرومانية من دين ومدنية وعلم، في المملكة الإسلامية جميعها؛ وكوّن منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر، كل هذه الأشياء التي عدناها كانت أسباباً لها نتائجها، ومن نتائجها ما كان من حركة علمية ودينية في ذلك العصر، أعني العصر الذي ينتهي بانتهاء الدولة الأموية؛ فهو الذي يعيننا الآن، وإذ كنا قد شرحنا بإيجاز هذه الأسباب، فلنشرح بإيجاز كذلك هذه النتائج، ولنقسمها قسمين: الحركة العلمية، وحركة العقائد الدينية.